

. . أو هكذا أتمنى !

رائع ما يراه الشعراء . .

سماوى ما يراه القديسون . .

مروع ما يراه المعذبون . .

وأنا مفتون بالجميع . وبالطبيعة . ولذلك ألتقط البذرة والورقة
والثمرة واللحمة والنغمة ، ثم يتفجر إحساسى بها جميعاً ، امتناناً لحكمة
الحياة ، وسر الكون . فأثدق وأستمع وأتوجع وألعن وأرفض وأسخط
وأثور ، على كل ما يقع فى يدي وفى عيني ومن عيني أيضاً .

إننى أفعل ما تؤديه الكائنات الأخرى الصغيرة فى تواضع شديد .
ما تفعله الفراشة والنحل ، طائرات دائرات راجعات ، تقبل كل زهرة وتمتص
وتفرز إلى الأبد . . وهى جميعاً - ونحن معها - تساهم فى الكوروس اللانهائى
لملايين المخلوقات التى تلمس إرادة الله وتنحنى لكل ما هو جميل ، ولكل
ماله معنى وهدف . .

ولكن التواضع غريزة الحيوانات ، ورذيلة الإنسان . . وليس من
خصائص المفكر أو الفنان . .

. قالفنان يريد أن يفعل شيئاً ، أو يتوهم ذلك . . يريد أن يجعل لكل
ما يفعله معنى ، أو يتمنى ذلك . .

فهو فلاح فى كل أرض ، وربان لكل بحر ، وطيّار لكل جو ،
وشاهد على كل حكمة أرضية أو سماوية فى كل عصر . .
وهو بذلك يتحدى الطبيعة .

إنه يريد أن يصعد الجبال ويهبطها إلى الأبد ، حتى لو لم يكن لما
يفعله أى هدف سوى التحدى - كما فعل البطل الإغريقى سيزيف .

أو يقف في الماء العذب ولا يذوقه . ويحاول وينشل ولكن رغبته لا تنطفيء . وهو يعلم أنه لا أمل ، ولكنه يتحدى - كما فعل البطل الإغريقي تنطالوس . .

أو يحرق الأرض رييذرها بالملح ، وهو يعلم أن الملح مقبرة البذور وهو يعلم أن الفاكهة لا تنبت من الملح . يحاول أن يضيف مرارة الملح إلى حلاوة الفاكهة . أن يضيف مرارة الواقع إلى حلاوة الوهم - منتهى الجنون أو منتهى الحكمة أيضا - ولكنه لا يتوقف كما فعل البطل الإغريقي عوليس . .

أو ينتشى بجمال الحياة والطبيعة والفن وينسى كل شيء - كما فعل بنا البطل الإغريقي أورفينوس . . .

إن الإنسان هو الذي . إذا قامت القيامة ، راح يغرس شجرة . وهو يعلم أن عصموراً واحداً لن يتأرجح على أغصانها . وأن إنساناً واحداً لن يسترخي في ظلها . ولكنها إرادة التحدي . . هي التي تجعل الإنسان يزرع الحياة في وجه الموت . يلوح بالأمل في أهوال اليأس . . والتحدى هو الذي يجعله يخطف صفة الفلاح في يوم انسحبت فيه الصفات من الجميع . . ويجعله يضيف كلمة بعد أن وضعت نقطة نهاية السطر في نهاية كتاب الوجود . .

ولست إلى هذه الدرجة متفائلاً أو متشائماً . .

ولنأنا أنا إنسان مهموم بالآخرين وبنفسي . . وعندى آراء في أشياء ، بعض الآراء في بعض الأشياء ، بعض الوقت !

.. أو هكذا أتوهم . في هذه الصفحات !

أنيس منصور